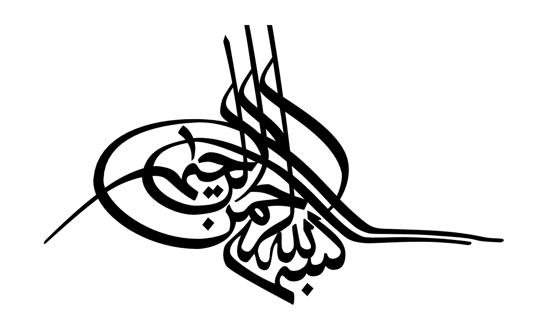
نظرة
في تاريخ العقيدة



رقم الإيداع

٢٠١١/٢٢١٢٤



www.alamal-publications.com

دار الأمل للنشر والتوزيع والترجمة

بجوار مسجد الإمام محمد بن عبد الوهاب - محطة ترام باكوس

الإسكندرية – مصر

daralamal@hotmail.com

٠١٠٠٠٢٨٢١٦٦ - ٠١١١١٨١٩٤٨٠

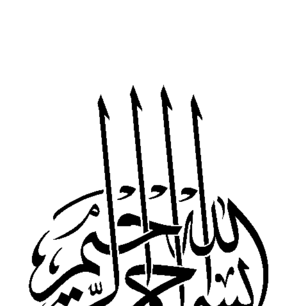
نظرة
في تاريخ العقيدة

إعـداد

محمد بن أحمد إسماعيل المقدم

ـ عفا الله عنه ـ





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حَقَّ حمده ، والصلاة والسلام علىٰ محمدٍ رسولِهِ وعبده ، وعلىٰ آله وصحبه من بعده .

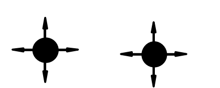
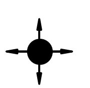
أما بعد :

فقد زعم بعض الناس أن العقيدة لم يعرفها الإنسان علىٰ ما هي عليه مرة واحدة ، وإنما ترقت وتطورت خلال قرون سحيقة أطلقوا عليها « عصور ما قبل التاريخ » ، و« العصور الحجرية » ، حيث لم يعرف الإنسان البدائي ـ في زعمهم ـ له ربًّا ولا معبودًا ، ثم نشأت لديه عاطفة التدين ؛ لما رأىٰ الحيوانات تخشىٰ القوىٰ الخفية ، وتخاف البرق والرعد ، فظل يبحث عن معبود يشعر نحوه بالولاء والتقديس

ـ مهما كانت صورة هذا المعبود الذي يتوجه إليه بالحب والرهبة ـ ، فالتمسه في الشمس والقمر والكواكب ، حتىٰ في الأشجار والحيوانات ، وقد تطور من وثنية إلىٰ وثنية إلىٰ أن اكتشف التوحيد من تلقاء نفسه ، أي أن الدين في زعم هؤلاء هو نتاج العقل البشري ، واختراعه .

ويفهم من هذه المزاعم :

أولًا : أن الإنسان الأول كان أقرب إلىٰ الحيوان ، وأنه خُلق خلقًا ناقصًا غير مؤهل لأن يتلقىٰ الحقائق العظمىٰ كاملة ، وأنه ـ طبقًا للنظرية الداروينية الفاشلة ـ كائن تطور عن غيره ، وعليه ؛ فليس لتكليف هذا الإنسان ولا لاستخلافه في الأرض معنىٰ .

ثانيًا : أنه كان مشركًا بطبيعته ، والأصل في فطرته النزوع إلىٰ الشرك والوثنية .

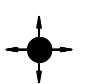
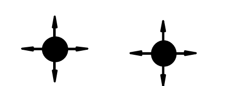
وبناء علىٰ ذلك ؛ زعموا أن الأصل في عقيدة البشرة العقيدة الفاسدة ، ثم طرأ التوحيد عليها ، حيث إن الدين الداعي إلىٰ التوحيد جاء متأخرًا عن وجود الإنسان علىٰ ظهر الأرض في ـ زعمهم ـ .

ثالثًا : أنه سعىٰ بجهده وعقله في البحث عن معبود ، وأن أفكاره تطورت ـ ذاتيًّا ـ بناء علىٰ تجاربه دون توجيه رباني يهديه ويرشده ، إلىٰ أن اكتشف الدين بنفسه دون معلِّم يعلمه ، وأنه كما ترقىٰ في العلوم والصناعات ؛ ترقىٰ ـ كذلك ـ في معرفة الله ـ تعالىٰ ـ .

رابعًا : أن قرونًا طويلة مرت علىٰ البشرية وهي لا تعرف لها ربًّا ولا معبودًا ، لكن كلما تقدم الزمن ؛ ترقت في مفهومها للدين وتطورت .

وعليه ؛ فإن من جاءوا بعد آدم كانوا علىٰ دينٍ أكمل منه ، والقرون المتأخرة كانت أقرب للفهم الصحيح من الأمم المتقدمة .

« وتأسيسًا علىٰ هذه المزاعم ؛ قاموا بمعالجة تواريخ الأمم التي سبقت بعثة محمد ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بما في ذلك تاريخ أوربا علىٰ أنه تاريخ وثني جاهلي محض ، لا أثر فيه لوجود الله ، ولا لدين هو الإسلام أوجب الله علىٰ البشرية أن تعتنقه ، ولا لنظام ولا لشرع رباني طلب الله من بني آدم أن يُخضِعوا حياتَهم له ، ولا وجود لرسل أُرسِلوا من قِبَل الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ ، يطلبون من الناس عبادة الله وحده بدون شريك ، أي : انتفاء التكليف الرباني لبني آدم .

والنموذج لذلك يتضح لنا من كيفية معالجة المستشرقين لتاريخ مصر ، والعراق ، وبلاد الشام ، والجزيرة العربية منذ أقدم الدهور ، والتي أسقطت ـ تمامًا ـ أي دعوة إلىٰ الإسلام حملها رسل الله في حياة الأمم التي سكنت تلك البلاد .

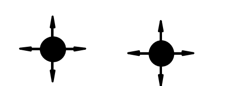
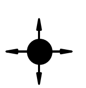
وبهذا ؛ أصبحت جميع الأمم ـ بلا استثناء ـ تنظر إلىٰ هذه الفترة من تاريخها علىٰ أنها خُلِقَت وتُرِكت هملًا ، فلم تكن تعرف لها ربًّا ، ولا ترتضي لنفسها دينًا .

ليس هذا فحسب ، بل راحوا يرددون أن الأصل في عقيدة أهل تلك الأقطار : الوثنية ؛ وأنهم تطوروا في وثنيتهم من التعدد إلىٰ التثنية إلىٰ التوحيد ، وأن أول الموحدين في مصر ـ من تلقاء نفسه في التاريخ ـ هو

الفرعون أخناتون « أمنحتب الرابع » الذي كان يعبد القوة الكامنة وراء إله الشمس آتون ، وأن عبادته هي الحقيقة والدين الصحيح ، وأن فكرته قد انتقلت إلىٰ بلاد العراق حيث أقام إبراهيم دينه ، أي أن إبراهيم هو مؤسس الإسلام ، أي أنه ليس وحيًّا من عند الله !!!

وتأكيدًا لهذه المزاعم ؛ حرص علماء الآثار من المستشرقين علىٰ طمس أي قرينة أثرية أو ملامح تاريخية تؤكد أن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ فطر البشرية علىٰ الإسلام ، وارتضاه لها دينًا ، وبه بعث الرسل .

وعندما تظهر قرينة ـ رغمًا عنهم ـ تؤكد أصالة خط توحيد الله في حياة البشر ؛ راحوا يعزونها إلىٰ تطور الفكر البشري ، فهم يزعمون أن الإنسان قد تطور في معتقده كما تطور في صناعته .

وأصحاب منطلق التجاهل والتجهيل بالإسلام لا يستندون إلىٰ دليل سوىٰ الجهل ، والجهل لا يصلح أن يكون دليلًا »[(١)] اهـ .

وفيما يلي نلقي هذه النظرة علىٰ :

مسالك الباحثين عن نشأة التدين في الوجود

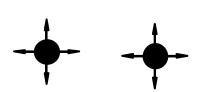
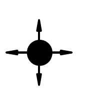
يقول الدكتور أحمد بن ناصر الحمد ـ حفظه الله ـ :

إن الطريق الذي يسلكه جمهور الباحثين للوصول إلىٰ هذا المطلب هو : التنقيب عن أديان الأمم القديمة ، أو أديان الأمم المعاصرة غير المتحضرة ، ويعتبر هؤلاء نهاية ما يعلمونه في القدم من أديان البشر ، وما عليه الأمم الأشد تخلفًا من ممارسات دينية صورة مطابقة لما كان عليه الإنسان الأول !

(١) انظر « الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء » للدكتور/ جمال عبد الهادي ـ حفظه الله ـ ص(٢٦) .

ومصادر هؤلاء في إثبات آرائهم ـ بالنسبة للأديان القديمة ـ : النقوش والرمم التي يستوحون منها ما يزعمونه قطعيًّا ، ولما كانت تلك مصادرهم ؛ اختلفت آراؤهم :

– فذهب فريق إلىٰ أن الدين بدأ بصورة الخرافة ، وأن الإنسان أخذ يترقىٰ في دينه ـ علىٰ مدىٰ الأجيال ـ حتىٰ وصل إلىٰ الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرج في علومه وصناعاته ، حتىٰ زعم بعضهم أن عقيدة « الإله الأحد » عقيدة حديثة ، وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي ، ونادىٰ بهذه النظرية أنصار المذهب التطوري الذي ساد في أوروبا في القرن التاسع عشر في أكثر من فرع من فروع العلم .

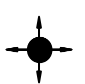
– وذهب فريق آخر إلىٰ القول : بفطرية التوحيد وأصالته ، وأثبتوا أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشرية .

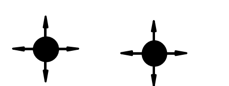
وقد رد أنصار هذا المذهب علىٰ القائلين بالمذهب التطوري ، مع أن مسالكهما في الوصول إلىٰ تحديد بداية الدين واحدة ، وهي : دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة .

وبالنظر إلىٰ مسالك القوم في إثبات العقيدة الدينية ؛ يتبين خطؤها من حيث الغاية والوسيلة ، يقول الدكتور محمد عبد الله دراز ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : « أما من حيث الغاية التي يهدف إليها البحث ، وهي : تحديد الأصل الأصيل للعقيدة ، والمظهر الذي ظهرت به في أول الأزمنة بإطلاق ؛ فلأن هذه المنطقة « البدائية المحضة » قد اعتبرها العلم شُقَّةً حرامًا حظرها علىٰ نفسه ،

وأعلن بصراحة خروجها عن حدود عمله ... ومؤرخو الديانات ـ علىٰ الخصوص ـ معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلًا تامًا ، فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب .

وأما من حيث المنهج ، وهو : الاستدلال علىٰ ديانة الإنسانية الأولىٰ بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية ؛ فلأنه مبني علىٰ افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها علىٰ الحالة التي وصل إليها بحثنا ، وأنها لم تمر بها أدوار متقلبة ، وهو افتراضٌ لم يقم عليه دليل ، بل الذي أثبته التاريخ ، واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية ، هو أن فترات الركود والتقهقر التي سبقت مدنياتها الحاضرة ، كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة ،





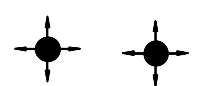
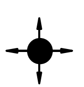
وأن هذه المدنيات قامت بدورها علىٰ أنقاض مدنيات بائدة قريبة ، أو بعيدة ، في أدوار تتعاقب علىٰ البشرية ..

فمن العسير أن نحكم ـ بصفة قاطعة ـ أن الخرافات القديمة بدايةُ ديانات ، كما يمكن أن يكون تحللًا ، وتحريفًا لديانة صحيحة سابقة مزقت أهلَها الحروب ، أو أفسدتهم المؤثرات الاجتماعية ؛ فقلت عنايتهم بأصول دينهم ؛ فضاع ، وبقي تعلقهم بأشياء منه محرفة ، أو مغلوطة ، بهذا يظهر مبلغ ثبات الفرض الذي بنيت عليه البحوث الحديثة كلها ، وأنها أُسِّسَتْ علىٰ جُرُفٍ هارٍ ، لا تطمئن عليه الأقدام » اهـ .

ومما يوضح بطلان هذه الطريقة التي سلكها أصحاب المذهبين للوصول إلىٰ معرفة هذا الأمر المهم بالنسبة للبشرية : أن القَدْرَ الذي عُرِفَ من تاريخ البشرية

وبين عصر نشأتها لا تزال الثغرة فيه واسعة لم تُسَدَّ ، ولن تُسَدَّ ؛ إذ لم يقل أحد : « إن الوقائع المفقودة الوثائق يمكن إثباتها علىٰ وجه قاطع بمثل هذا الضرب من التخمين اعتمادًا علىٰ مجرد حسن المقابلة ، وجمال التناسق بينها ، وبين الوقائع المعروفة » ، دون تثبت من حصول التشابه بين تلك العصور ، حتىٰ يتم القياس علىٰ وجه صحيح ودقيق .

وأما الاستدلال بالآثار من النقوش ، أو الحفريات ، ثم استنطاق الرمم فأمر يحتاج إلىٰ كثير من التأمل ، وكل من كان له قلب ؛ يدرك مدىٰ اختلاف تفسيرات الناس للأشياء المعينة المشاهدة في وقت واحد ، فكيف الحال بتفسيرات المتأخرين بقرون طويلة لأحوال أولئك المتقدمين وأعمالهم ؟

كما أن تعبيرات الناس عن الصور الحية متباينة كل التباين ، فكيف هي عنها بعد أن رَمَّتْ ؟!

هذا فيما يتعلق بمستند الرأيين علىٰ حد سواء ، ويزيد المذهب التطوري في كونه مبنيًّا علىٰ افتراض آخر ، هو :

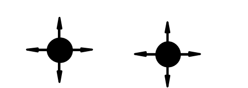
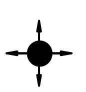
أن الملكاتِ والأحاسيسَ الروحية كالقوىٰ البدنية ، والمكتسبات العقلية ، والتجريبية ، فكما أن الإنسان ينتقل في نموه البدني من الضعف إلىٰ القوة ، وفي نموه العقلي من الجهالة إلىٰ المعرفة ، قد يلوح أنه بدأ حياته الروحية بالسخف والخرافة ، ولم يصل إلىٰ العقيدة السليمة إلا بعد جهد وعناء .

وقد انتُقِد هذا القياس بأن المشاهد من حياة الناس الروحية : عدمُ التوافق في كل أدوارها جنبًا إلىٰ جنب

مع حياتهم المادية ، بل إنهما يسيران في طريقين متعارضين ككفتي الميزان لا ترتفع إحداهما ؛ إلا انخفضت الأخرىٰ .

وقليل من التأمل ؛ يهدي إلىٰ أن محاولة قياس الأديان علىٰ الفنون والصناعات إنما هو محاولة للجمع بين أمرين لا تؤلف بينهما حقيقة نوعية مشتركة ، بل تتباين طبائعهما ووسائلهما ، ولقد كان مقتضىٰ الوضع السليم في تعرف ما كانت عليه بداية الأديان فيما قبل التاريخ أن نسترشد في مقارنتها بسير الديانات المعروفة منذ طفولة التاريخ إلىٰ اليوم .

فالمعروف بالاستقراء : أن كل واحدة من هذه الديانات بدأت بعقيدة التوحيد النقية ، ثم خالطتها الشوائب ، والأباطيل مع تقادم زمنها ، فالأشبه أن تكون هذه سنة التطور في الديانات كلها .

ومن عجيب أمر الباحثين في تاريخ الأديان : أنهم يغفلون آثار الأنبياء ، ويتجاهلون كتبهم ، ويتعلقون بالواهي من الأدلة ، ورموز الأخبار ، والآثار ، وتزداد الغرابة ، وتعظم المصيبة حينما يكون الباحث مسلمًا ، ويتابع غير المسلمين في مثل هذه الأمور التي صرحت بها الرسالات السماوية ، وجَلاها الدين الإسلامي بما لا يدع مجالًا للشك ، سواء بالنسبة لخلق الإنسان ، أو تكوينه ونظام حياته ودينه ، والحكمة من خلقه ووجوده [(١)] .

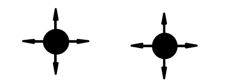
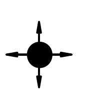
والله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ يقول : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، ويقول ـ جَلَّوَعَلَا ـ : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١] .

(١) انظر : « العقيدة نبع التربية » ص(٦٨-٧٤) .

وإذا كنا من خلال ما سبق قد رأينا أن وسائل العلوم التي يسلكها الباحثون في تحري الحقائق لم تقدم لنا بيانًا يطمئن إليه القلب ، وتسكن إليه النفس عن ديانة الإنسان الأول ، فما هو المصدر الصحيح الذي يمكن من خلاله أن نستشرف هذا الغيب ، ونقف علىٰ وجه الصواب فيه ؟

إنه الوحي الإلهي وحده ، الذي يطلعنا علىٰ حقائق الماضي والحاضر والمستقبل التي تغيب عن عقولنا وحواسنا ، إنه القرآن الكريم كلام الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ الذي ﴿ **لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت : ٤٢] .

❁ ❁ ❁

القرآن الكريم وحده يوضح تاريخ العقيدة

يقول فضيلة الدكتور عمر الأشقر ـ حفظه الله ـ :

« لـيس هنـاك كتـاب في الأرض يوضـح تـاريخ العقيـدة بصدق إلا كتـاب الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ ، ففيـه علم غزير في هذا الموضوع ، وعلم البشر لا يمكـن أن يدرك هذا الجانب إدراكًا وافيًا لأسباب :

الأول : أنا ما نعرفـه عـن التـاريخ الإنـساني قبـل خمسة آلاف عام قليلٌ ، أما ما نعرفه قبـل عـشرة آلاف عام فيعتبر أقلَّ مـن القليـل ، ومـا قبـل ذلـك فيعتـبر مجاهيل ، لا يدري علم التاريخ من شـأنها شـيًئا ، لـذا فإن كثيرًا من الحقيقة ضاع بضياع التاريخ الإنساني .

الثاني : أن الحقائق التي ورثها الإنـسان اختلطـت بباطـل كثـير ، بـل قـد ضـاعت في أمـواج متلاطمـة

في محيطات واسعة من الزيف ، والدجل ، والتحريـف ، ومما يدل علىٰ ذلك : أن كتابة تاريخ حقيقي لشخـصية أو جماعة ما في العصر الحديث تعتبر من أشق الأمور ، فكيف بتاريخ يمتد إلىٰ فجر البشرية ؟!

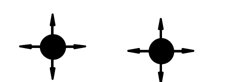
الثالث : أن قسمًا من التـاريخ المتلـبس بالعقيـدة لم يقع في الأرض ، بل في السمـاء .

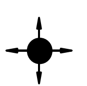
لـذا كـان الـذي يستطيع أن يمدنـا بتاريخ حقيقي لا لبس فيـه هـو الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ** ﴾ [آل عمران : ٥] » .

فإذا تأملنا القرآن المجيد ؛ تجلت لنا بوضـوح الحقـائق التالية :

الحقيقة الأولى :

أن الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ خلق آدم منذ البداية خلقًا سويًّا مـستقلًّا مكتملًا ، ثم نفخ فيه من روحه ، وأنـه خلقـه لغايـة محـددة





وهي عبادة الله وحده ، وأنه ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ خُلِقَ مؤهلاً لذلك ، وأنه عرَّفه علىٰ نفسه ـ سبحانه ـ منذ البداية ، ولم يتركه لفكره ؛ ليتعرف علىٰ ربه بطريق التفكير والتأمل ، وهاك بيانَ هذه الحقيقة :

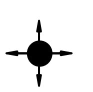
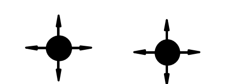
يقول الدكتور أحمد بن ناصر الحمد ـ حفظه الله ـ : « دلت آيات القرآن المجيد علىٰ أن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلَّمه الأسماء كلها ، فتميز علىٰ الملائكة بنوع علمه ، ثم أسكنه الله ـ تعالىٰ ـ الجنة هو وزوجه .

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .

وقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩] .

وهل يخطر في بال عاقل أن يكون هذا المخلوق المكرم ، المعلَّم للأسماء كلها ، لم يعرف الله ـ تعالىٰ ـ ، وما يجب له ، وما يجوز في حقه ، وما هو واجب العبد تجاهه ، وهو يرىٰ الملائكة يسبحون الله ويحمدونه ، لا يفترون ، مع أن الله ـ تعالىٰ ـ أمره ، ونهاه ، وحذره هو وزوجه عندما أمرهما بسكنىٰ الجنة والأكل منها حيث شاءا ، إلا شجرة واحدة ، نهاهما عنها ، وحذرهما عاقبة قربها ، كما أخبر ـ تعالىٰ ـ آدم ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ بعدوه وعدو زوجه ، إبليس ـ لعنه الله ـ ، وأن مغبةَ إطاعته ؛ خروجُهما من الجنة ، وحصولُ الشقاء لآدم ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١١٧] .

ولم يعصِ الله ـ تعالىٰ ـ آدمُ ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ متعمدًا ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥] .

وقَالَ تَعَالَىٰ فيما قصَّ من فعل إبليس : ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ٢١، ٢٢] .

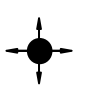
وبعد مخالفة آدم وحواء نَهْيَ الله ـ تعالىٰ ـ لهما ، وطاعةِ عدوِّهما ، وحصول ما حصل نتيجة المعصية من بُدُوِّ السوأة والغواية ؛ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١] .

أدرك آدم وحواء بعد الوقوع في المنهي عنه أثر المعصية ؛ فندما علىٰ ما حصل ، وتوجها إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ طالبين مغفرته ورحمته ـ معترفين بالذنب ، وبظلم النفس .

قَالَ تَعَالَىٰ مخبرًا عنهما : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

وقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧] .

وتلك الكلمات التي تضرع بها إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ توبةً وإنابةً لا تكون إلا بأسماء الله الحسنىٰ وصفاته العليا ، وهي طريق دعائه ، ومناجاته ، وكان هذا قبل أن يهبطه الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ الأرض كما هو رأي بعض العلماء ، وبعد أن أهبطه الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ الأرض ،



ذكَّره بعداوة إبليس له ، وأنه مصدر شر له ، وأن هداه وصلاحه لا يكون إلا من الله ـ تعالىٰ ـ .

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٢-١٢٤] .

وقَالَ تَعَالَىٰ حاكيًا قول إبليس : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٢،٨٣] » (١) .

الحقيقة الثانية :

أن كل مولود يولد على فطرة (٢) التوحيد :

(١) « العقيدة نبع التربية » ص(٧٥-٧٨) بتصرف .

(٢) **معنى الفطرة لغة :**

هي من « فطر الشيء يفطره » يشقه ، وتَفَطَّر : تشقق ، فالفطر : الشق ، وجمعه : =

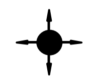
لقد دلتنا قصة آدم ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ علىٰ أنه كان علىٰ عقيدة التوحيد ، ودل القرآن الكريم والسنة النبوية أن هذا لم يكن خاصًّا بالإنسان الأولِ آدمَ ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ ، وإنما هو عام في كل مولود .

= فطور ، ومنه : فطر ناب البعير ، إذا طلع ، وفي التنزيل قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ أي : انشقت ، وفي الحديث عن عائشة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ـ : « أن النبي ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ كان يقوم من الليل حتىٰ تتفطر قدماه » رواه البخاري .

والفطر : الابتداء والاختراع ، ـ قَالَ تَعَالَىٰ ـ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : خالقهما ومبتدئهما ، وقال ابن عباس ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ : « كنت لا أدري ما ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ حتىٰ أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أنا بدأتها » .

الفطرة اصطلاحًا :

وردت الكلمة في القرآن الكريم في قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، ووردت في التنزيل بصيغ أخرىٰ غير صيغة المصدر ، ترجع معانيها إلىٰ الخلق والابتداء والتشقق ، وهي معانيها اللغوية كما تقدم ، والصحيح الذي تؤيده الأدلة أن الفطرة اصطلاحًا هي : « الإسلام » .

فقد قال تعالىٰ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ (١) ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ (٢) ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

و قال تعالىٰ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

---

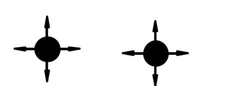
(١) قال ابن كثير ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : « فسدِّد وجهك ، واستمر علىٰ الدين الـذي شرعـه الله لك مـن الـحنيفية ، ملة إبراهيم التي هداك الله لها ، وكمَّلَها لك غاية الكمال ، وأنت ـ مع ذلك ـ لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليهـا ، فـالله ـ تعـالىٰ ـ فطر خلقه علىٰ معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره » اهـ .

(٢) للعلمـاء في تفسيرها قولان :

الأول : أنها خبر بمعنىٰ الطلب ، أي : لا تبدلوا خلق الله ؛ فتغيروا الناس عن فطرتهم .

الثاني : أنها خبر علىٰ بابه ، وهو أنه ـ تعالىٰ ـ ساوىٰ بين خلقه كُلهـم في الفطـرة علىٰ الجبلَّة المستقيمة ، لا يُولدُ أحد إلا علىٰ ذلك ، ولا تفاوت بينهم في ذلك .

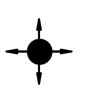
وفسرَّ البخاري قولـه : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ فقـال : لديـن الله ، واستـشهد بـأن قولـه ـ تعالىٰ ـ : ﴿ خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعني : دين الأولين ، ثم قال : « والفطرة : الإسلام » .



و قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : ١٩] .

في هـؤلاء الآيـات الكريمـات دلالـة علىٰ أن الـدين الحنيف هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وذلـك هـو الدين القيم الـذي كـان النـاس عليـه قبـل الاختـلاف ، وذكـر المفسرون في تفسير قولـه ـ تعـالىٰ ـ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أنَّ الناس بقـوا عشـرة قرون علىٰ الدين الحق قبل حدوث التغيير ، وطـروء الشرك .

وعـن أبي هريـرة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ قـال رسـول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : « **مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟** » ،



ثم يقول أبو هريرة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ : « اقرءوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية »[1] .

قوله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ » أي : ليس مولود من بني آدم « إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ » أي : الخِلْقة الإسلامية ، والمراد الدين ، كما في قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، وهذه الفطرة ، قيل : هي الإيمان المعهود الذي أخذ الله به علىٰ بني آدم الميثاق يوم قال لهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ ، وإليها يشير قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي : اثبت علىٰ إيمانك القديم الواقع منك في عالم الذَّرِّ ، يوم قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

(١) رواه البخاري ومسلم .

وهذه الفطرة هي فطرة الإسلام[1] ، والسلامة

(١) ويؤيد تفسيرَ الفطرة بالإسلام ما يلي :

أولًا : الروايات المختلفة الألفاظ المتفقة المعاني ، والتي يفسر بعضها بعضًا ، مثل : « **مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَهُوَ عَلَىٰ الْمِلَّةِ** » ، وفي أخرىٰ : « **إِلاَّ عَلَىٰ هَذِهِ الْمِلَّةِ** » كما في « صحيح مسلم » رقم (٢٦٨٥) .

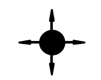
ثانيًا : قول أبي هريرة في آخر الحديث : اقرءوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ مما يفيد أنه فسَّر الحديث بالآية ، وقد حكىٰ أبو عمر بن عبد البر إجماع العلماء علىٰ أن المراد بالفطرة في الآية : « الإسلام » .

ثالثًا : فتوىٰ أبي هريرة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ حين سئل عن رجل عليه رقبة مؤمنة ، أيجزئ عنه الصبي أن يعتقه ، وهو رضيع ؟ فقال : « نعم ، لأنه ولد علىٰ الفطرة » أي : الإسلام ، وقال ابن شهاب الزهري : « يُصلىٰ علىٰ كل مولود متوفًّىٰ وإن لِغِيَّةٍ ؛ ـ أي : من ولد الزنا ـ من أجل أنه وُلد علىٰ فطرة الإسلام » ، وأفتىٰ الزهري رجلًا عليه رقبة مؤمنة أن يُعتق رضيعًا ؛ لأنه وُلد علىٰ الفطرة .

وقال الإمام أحمد : « من مات أبواه وهما كافران ؛ حُكِمَ بإسلامه » ، واستدل بحديث : « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ** » .

رابعًا : أن في قوله : « **فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ** » ذكر تغيير الفطرة إلىٰ ملل الكفر دون ملة الإسلام ؛ فعلم أنه يتحول عن الإسلام إلىٰ غيره ، بفعل الأبوين أو غيرهما .

خامسًا : أن في قوله : « **هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟** » إشارة إلىٰ أن البهيمة خُلقت سليمة ، ثم جُدعت بعد ذلك ، فكذلك الولد يولد سليمًا من الكفر ، ثم يطرأ عليه =

مـن الاعتقـادات الباطلـة ، والقبـول للعقائـد الصحيحـة ، فـإن حقيقة الإسـلام أن يستسلم العبـد لله لا لغـيره ، وهـو معنىٰ « لا إلـه إلا الله » ، فالقلـوب مفطـورة علىٰ الافتقـار إلىٰ الله ، وهـي لا تقنع بمحبوب سواه ، ولا تطمئن إليـه ، فـإذا أحبت الله ـعَزَّوَجَلَّ ـ ووحَّـدته ؛ سكنـت ، واطمـأنت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

وَمَثَلُ الفطرةِ مع الحقِّ كَبَصَرِ العين مـع الـشمس ، فكل ذي عين مبصرة لـو تُرِكَـتْ عينـه بغـير حجـاب عليهـا ؛ فإنــه يــرىٰ الــشمس ، والعقائــد الباطلــة

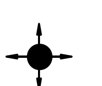
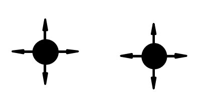
= الكفر بعد ذلك ، فالعيب الذي طرأ علىٰ البـدن ، يقابلـه العيـب الـذي طـرأ عـلىٰ الدين ، وهو الكفر » اهـ بتصرف من مقالة بعنوان : « فطر الله الخلـق عـلىٰ الحـق » لعثمان علي حسين ، مجلة « البيان » العدد (٥٧) جمادىٰ الأولىٰ ١٤١٣ هـ .

كاليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية مثل الحجاب علىٰ العين ، فهي تحول بين البصر وبين رؤية الشمس ، كمـا أن كُـلَّ ذي حِسٍ سليمٍ يحب الحُـلْوَ ، إلا أن يعـرض في طبيعتـه فسـاد ، يـجعل الحلوَ في فمهِ مُـرًّا .

ومن يـكُ ذا فــمٍ مـريضٍ

يجـدْ مـرًّا بـه الماءَ الـزُّلالا

ولا يلـزم مـن كـونهم مولـودين عـلىٰ الفطـرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام والإيمان ـ الذي هو قول ، واعتقاد ، وعمل ـ بالفعل ، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا ، ولكن المـراد بـذلك : سلامة القلـب ، وإرادتـه للحـق الـذي هــو الإسـلام ، بحيث لـو تُـرِكَ من غـير أن يـخضع لـمؤثـر خـارجـي مــن الـشياطين أو مـــن الوالــدين ، أو نحـو ذلــك ؛

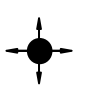
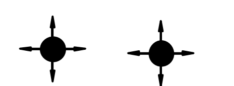
لما كان إلا مسلمًا ، وهذه القوة العلمية والعملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ـ ما لم يمنعها مانع كمؤثرات البيئة ، وتقليد الأبوين ـ هي فطرة الله التي فطر الناس عليها .

وبنمو الطفل رويدًا رويدًا ؛ تبدأ هذه الفطرة تتحرك في أعماقه ، وتجذبه بكل قوة نحو الحقيقة العظمىٰ ، فمِنْ ثَمَّ نلاحظ أنه في مرحلة معينةٍ يبدأ في إلقاء أسئلة تكاد لا تنتهي علىٰ والديه عما يحيط به :

من رفع السماء ؟ ولماذا هي زرقاء ؟ أين تذهب الشمس ليلًا ؟ لماذا لا تظهر لنا في الليل ؟ أين يذهب النور حين يحل الظلام ؟ لماذا تتلألأ النجوم ؟ أين تنتهي الأرض ؟ لماذا تفوح الروائح العطرة من بعض الأزهار دون البعض الآخر ؟ من أين أتيت ؟ وأين كنت قبل أن آتي إلىٰ الدنيا ؟

إنها الفطرة المغروسة في أعماق نفسه تبدأ في الاستيقاظ لتتحرك ، وتتعرف علىٰ خالق الكون وما فيه ، وكلما نمت ملكاته وزاد علمه ؛ كلما اطمأن قلبه بالإيمان بالله وحده ، لا شريك له [1] .

(١) « وذلك ؛ لأن موجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا فشيئًا بحسب كمال الفطرة واستعدادها ، وسلامتها من المعارض ، فكل مولود يولد علىٰ الإقرار بفاطره ، ومحبته ، والإذعان له بالعبودية ، فلو خُلِّي وعدمَ المعارض ؛ لم يعدل عن ذلك إلىٰ غيره ، كما أنه يولد علىٰ محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة ، كما قال تعالىٰ : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ، فهو ـ سبحانه ـ خلق الحيوان مهتديًا إلىٰ حُبِّ ما ينفعه وجَلْبه ، وبغض ما يضره ودفعه ، ثم هذا الحب والبغض يحصلان فيه شيئًا فشيئًا بحسب حاجته ، لكن قد يعرض لبعض الأبدان ما يفسد ما وُلِدَ عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة ، وهكذا ما وُلِدَ عليه من الفطرة ، ولهذا شُبهت الفطرة باللبن ، بل كانت هي اللبن في تأويل ما رآه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين عُرِض عليه ليلة الإسراء اللبن والخمر ، فاختار اللبن ، فقيل له : « أصبتَ الفطرة » أو : « هُدِيتَ للفطرة » فمناسبة اللبن لبدنه ، وصلاحه عليه ـ دون غيره ـ كمناسبة الفطرة لقلبه ، وصلاحه بها دون غيره » ، انتهىٰ ملخصًا من « البيان » العدد (٥٧) ص(١٧ ، ١٨) .

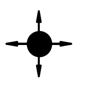
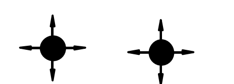
أما الذي تفسد فطرته بعوامل البيئة المحيطة ؛ فإنه ينشأ علىٰ عقائد منحرفة أجنبية عن فطرته السوية ، قَالَ تَعَالَىٰ في المنافقين : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ فجعل الهدىٰ هو رأس المال الحاصل عندهم والذي منحهم الله إياه ، إلا أنهم عرضوه للزوال ، وخسروه حين بدلوا هذه الفطرة المستقيمة القريبة منهم ، واشتروا بها الضلالة البعيدة عنهم ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ .

إن ذلك الحديث الشريف المتقدم ليؤكد أن الأصل في عقيدة الإنسان هو التوحيد ، وأنه يولد مُهَيئًا للعقيدة الصحيحة في فاطره وخالقه ـ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ـ ، أما الشرك فهو انحراف يطرأ علىٰ هذا الأصل ، فيفسد الفطرة ، وذلك بتأثير البيئة المحيطة به ،

ولذلك قال ـ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ـ : « **فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ** » أي : يجعلانه يهوديًّا ـ إن كانا يهوديين ـ ، « **أَوْ يُنَصِّرَانِهِ** » أي : يجعلانه نصرانيًّا ـ إن كانا نصرانيين ـ ، « **أَوْ يُمَجِّسَانِهِ** » أي : يجعلانه مجوسيًّا ـ إن كانا مجوسيين ـ .

والشاهد من الحديث أن الضلال عن فطرة الإسلام ليس من المولود بل من مؤثر خارجي ، فإن بلغ الحلم ، وبقي منحرفًا عن دين الفطرة ؛ بقي معه الضلال ، وإذا أسلم وجهه لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ انتفىٰ عنه ، وعاد إلىٰ الفطرة الإسلامية .

وقد ضرب رسول الله ـ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ـ مثلًا يؤكد معنىٰ الحديث ، فقال ـ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ـ : « **كما تُنْتَجُ** » أي : تلد « **الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ** » أي : تامة الأعضاء ، سميت : « جمعاء » ؛ لاجتماع أعضائها ، أي أن المولود يولد علىٰ الفطرة مثل نتاج البهيمة ،

فإنـهـا تولد سليمة الأعضاء كاملتها « **هَلْ تُحِـسُّونَ** » أي : هل تُبْصِرون « **فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟** » أي : مقطوعة الأذن ، أو الأنف ، أو الأطـراف ، وإنـما يطـرأ عليهـا قطـع هـذه الأعضاء بعد ولادتها سليمة ، كـذلك الأبـوان الكـافران يغيران فطرة ولدهما ، ويحسِّنان له العقيدة الباطلة .

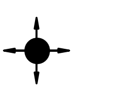
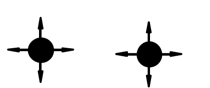
وهذا الذي دل عليه الحـديث النبـوي الـشريف ؛ دل عليه الحديث القدسي الذي رواه عياض المجاشعي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ أن رسـول الله ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ـ قال ذات يـوم في خطبتـه حـاكيًـا عـن الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ أنـه قـال : « ... **وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّـهُـمْ أَتَتْهُم الشَّيَاطِينُ ؛ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِيـنِهِمْ ، وَحَرَّمَـتْ عَلَـيْهِمْ مَـا أَحْلَلْـتُ لَهُمْ ، وَأَمَـرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَـا لَمْ أُنْـزِلْ بِهِ سُلْطَانًا** » (١) .

(١) رواه مسلم .

فقوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ **حُنَفَآءَ** ﴾ جمـع حنيـف ، وهـو الذي يميل إلىٰ الشيء ، ولا يرجـع عنـه ، كـالحَنَفِ في الرِّجْلِ ، وهـو : ميلهـا إلىٰ خارجهـا خِلْقَـةَ ، لا يقـدر الأحنف أن يرد حَنَفَه ، والمقصود بالحنيف هنا : الذي يميل عن الأديان إلىٰ الإسلام .

والحديث يـدل عـلىٰ أن الأصـل في الآدميـين هـو الفطرة والتوحيد ، وأن الشرك عارض طارئ .

يتحصَّل مـمـا تقـدم أن البدايـة الحقيقيـة لتـاريخ الإسلام دينًا ، والمسلمين أمـةً ، لـم تبـدأ برسـول الله مـحمد ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ـ منـذ أكثـر مـن أربعـة عشر قرنًا ، وإنمـا بدأت منذ فجر التاريخ البشري مع خلق آدم ـ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ـ ، فاللبنـة الأولىٰ في تـاريخ البـشرية ، والمكونة من آدم وحواء وذريتهمـا ؛ فُطروا علىٰ الإسلام ،

وكذلك كل من جاء بعدهم من الأنبياء والرسل ؛ كان لهم شرفُ حَمْلِ رسالةِ الإسلام والدعوةِ إليها ، وقد استجاب لهم المؤمنون المسلمون الذين عاشوا بالإسلام ، وللإسلام ، ومنهم تكونت الأمة الإسلامية ، وفيما يلي مزيد بيان لهذه :

الحقيقة الثالثة :

أن التوحيد هو الأصل ، والشرك طارئ عليه

أولًا : الجيل الأول من البشرية كان على التوحيد :

هبط آدم إلىٰ الأرض ، وأنشأ الله من ذريته أمة كانت علىٰ التوحيد الخالص كما قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي : علىٰ التوحيد والدين الحقِّ ؛ فاختلفوا ، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

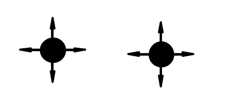
وفي حديث أبي أمامة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن رجلًا سأل رسولَ الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فقال : « يا رسول الله ! أنبيٌّ كان آدم ؟ » قال : « **نَعَمْ ، مُكَلَّمٌ** » قال : « فكم بينه وبين نوح ؟ » قال : « **عَشَرَةُ قُرُونٍ** » [١] .

وقال ابن كثير في « البداية والنهاية » : « هذا علىٰ شرط مسلم ، ولم يخرجه » ، وفي « صحيح البخاري » عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال : « وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ الإسلام » .

ثانيًا : أول انحراف عن العقيدة وأول رسول :

وبعد أن كان الناس أمة واحدة علىٰ التوحيد حصل الزيغ والانحراف ، وكان أول انحراف حدث هو : الغلو في تعظيم الصالحين ،

(١) رواه أبو حاتم بن حبان في « صحيحه » .



ورفعهم إلىٰ مرتبة الألوهية ، ففي « صحيح البخاري » من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣] .

قال : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا ؛ أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم : (أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا ، وسموها بأسمائهم) ، ففعلوا ، فلم تُعبد ، حتىٰ إذا هلك أولئك ؛ وانتسخ العلم (١) ؛ عُبِدت » .

فهذا أول انحراف وُجِد في تاريخ البشرية عن التوحيد ، فأرسل الله إليهم أول رسله نوحًا ـ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ـ ؛ مصداقًا لوعده الذي أعطاه لأبي البشر آدم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب هداية للبشرية .

(١) أي : نُسي ، ودَرَس .

والدليل علىٰ أنَّ نوحًا كان أول رسول مبعوث : حديث الشفاعة الثابت في صحيحي البخاري ومسلم ، وفيه : « أن الناس يأتون بعد آدم نوحًا ، فيقولون له فيما يقولون : « **يَا نُوحُ ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ** (١) ، **وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا** » ، والنصوص التي بين أيدينا من كتاب ربنا تدل دلالة واضحة علىٰ أن نوحًا قد دعا إلىٰ التوحيد الخالص ، فقد قال لقومه : ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف : ٥٩] وقال : ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود : ٢٦] وقال : ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون : ٢٣] .

(١) أي : الذين نَجَوْا بعد الطوفان ، أما قبله فقد كان بُعث إلى قومه خاصة .

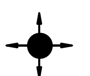
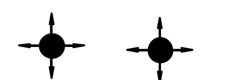
والـذين استجـابــوا لدعـوتـه إلىٰ التـوحيـد هــم ضعفـاء الناس ، في حين تنكـر لهـا السادة والزعمـاء ، الذيـن يظنـون في أنفسهم العقل والذكـاء ، حيث استكبروا عـن متابعـة الحـق : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٠] والـمـلأ : السـادة والكـبراء ، وقالـوا لـه : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود : ٢٧] .

اتبعوك بدون تأمـل عميـق ، وتفكـير ونظـر ، وهـذا الذي رَمَـوْهم بـه هـو مـا يـجـب أن يُمدَحوا بـه ، فـإن الحق إذا ظهر لا يحتاج إلىٰ نظر ، بل يـجب اتباعه فورًا .

وتعجبـوا أن يبعـث الله رسولًا بشـرًا ، فقالـوا : ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هـود : ٢٧] ، ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [المؤمنـون : ٢٤]

وطلبـوا منـه أن يطـرد الضعفاء والمساكين الذين تابعـوه ، فرفض طلبهم ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : ٢٩] .

وقـد تـطـاول الزمـان ، وكثـرت المجادلـة بينـه وبينهـم كمـا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤] ، فدعا عليهم : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦،٢٧] ، فأهلكهم الله بالطوفان ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ [الفرقـان : ٣٧] ، وأنجـىٰ نوحًـا والمؤمنين برحمـة منه ، وخلت الأرض مـن الظالمين ، ولم يبـق فيها إلا الموحِّـدون ، فلمـا انحرفوا عن التوحيد ؛ أرسل الله إليهم رسولًا ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [المؤمنون : ٣١، ٣٢] فدعاهـم إلىٰ تـوحيـد الله ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ .

وهكـذا استمـرت رحمة الله وعنايته ببني آدم ، كلمـا ضلوا وزاغـوا ؛ أنـزل إليهم هـداه يضيء لهم الظلمـات :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] .

هذه هي قصة البشرية الحقيقية : صراع طويل بين الحق والباطل ، بين الرسل الذين يَعْرِضون الهدىٰ والحق ، وبين الضالين عن التوحيد المتمسكين بما ألفَوْا عليه الآباء والأجداد ، وبأهوائهم ومعتقداتهم الباطلة :

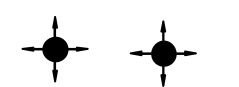
﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟

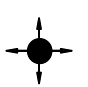
إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ٩، ١٠] .

ثالثًا : الشرك الطارئ انحطاط وهبوط من الأعلى (الفطرة) إلى الأدنى ، وليس تطورًا ولا ترقيًا :

فليس السبب في الشرك واتخاذ المعبودات من دون الله هو الترقي في العقيدة خلال القرون ، بل سببه الحقيقي هو :

انحراف أتباع الرسل عما جاءت به الرسل ، وتركهم ما جاءت به الرسل : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] واتباعهم الظن والهوىٰ وتركهم الهدىٰ ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٣] ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٧٧] .





وقال في اليهود : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة : ١٣] .

وقال في النصارىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة : ١٤] .

وقال فيهم مبينًا انحرافهم عن التوحيد الذي أُمروا به : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

لذا ؛ فإن الرسل يتبرؤون من الذين انحرفوا عن منهجهم ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ

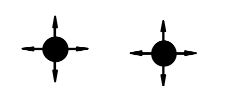
أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : ١١٦، ١١٧] .

الحقيقة الرابعة :

أن الله ـ تعالى ـ لم يترك أمة بلا نذير

أولًا : آدم ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ هو أول البشر خلقه الله ـ تعالىٰ ـ من تراب ، من غير أب ، ولا أم ، ثم خلق منه زوجه ، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء ، وبداية عيش هذا النوع كانت في الجنة ، ثم أهبط إلىٰ الأرض ، عرف ربه في السماء ، وتوجه إليه ، وأناب بعد أن أهبطه إلىٰ الأرض .

وقد تولىٰ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ هذا النوع من خلقه بهداه ؛ إذ لا صلاح له ، ولا استقامة له في هذه الدنيا إلا باتباع هدىٰ الله ـ تعالىٰ ـ قال سبحانه :



﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] ، و قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣،١٢٤] .

ثانيًا : لم يخلق الله ـ تعالىٰ ـ الإنسان عبثًا ، ولم يتركه سدىٰ ، إنما خلقه لحكمة وغاية ، وامتحنه بالفعل والترك فيما أوحاه إلىٰ رسله ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ١-٣] .

و قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

و قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] .

و قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧] ، و قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢] .

و قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ثالثًا : تعهد الله هذا النوع من خلقه بوحيه ، فأول البشر خلقًا آدم ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ كان أول المجتبَيْنَ المخاطبين بوحي الله ـ تعالىٰ ـ وهو ممن كلم اللهُ ـ تعالىٰ ـ واصطفاه بالنبوة .

روىٰ الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال : « أتيت رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، وهو في المسجد ، فجلست » الحديث ، وفيه : قلت : « يا رسول الله ! أي الأنبياء كان أول ؟ » قال : « **آدَمُ** » قلت : « يا رسول الله ! ونبي كان ؟ » ، قال : « **نَعَمْ ، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ** » .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

دلت النصوص السابقة علىٰ تعهد الله ـ تعالىٰ ـ الإنسان من أول وجوده بما فيه كماله ، بالشرائع

السماوية الداعية إلىٰ عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، ولم يترك ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ أمة اقتضت حالتها بعث نبي إلا بعثه ، كأن يكون ما بأيديهم من شرع لأمة سابقة ، ولا يناسبهم ، أو أن يكون ما بأيديهم من شرع طرأ عليه محو ، أو تغيير ، أو نحو ذلك .

وتكفل ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد أن تقوم عليه الحجة ، وتبلغه دعوة الرسول ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٥] .

رابعًا : دعوة الرسل واحدة :

دعوة الرسل واحدة ، فأصل دعوتهم جميعًا ولُبها التوحيد : تعريف الناس علىٰ ربهم ومعبودهم ، وبيان للطريقة التي يعبدونه بها ، كما أن دين الرسل جميعًا الإسلام لا دين لهم سواه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، فنوح يقول : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧٢] .

وقال الله عن التوراة : ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال موسىٰ لقومه : ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤] .

وأمر الله خليله إبراهيم بالإسلام ، فقال : ﴿ أَسْلَمْتُ

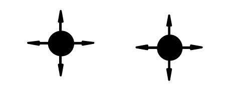
لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] ، ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

وعندما سأل يعقوب بنيه عن معبودهم من بعده ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

وقالت ملكة سبأ : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] .

ويوسف كان من دعائه : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

والرسول ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يقول : « **إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ** » ، أي : أبوهم واحد ، وأمهاتهم مختلفة ، وكذلك الأنبياء دينهم واحد ، وشرائعهم مختلفة .



وهذا التنوع الذي نراه في الشرائع لا يدل علىٰ أن دينهم كان مختلفًا ؛ لأن الله قد يشرع أمرًا لحكمة ، ثم يشرع أمرًا آخر في وقت آخر لحكمة أخرىٰ ، بل قد يكون هذا في الشريعة الواحدة ، كما شرع الله في بداية الأمر الاتجاه إلىٰ بيت المقدس في الصلاة ، ثم نسخ ذلك بأن أمر بالتوجه إلىٰ البيت الحرام .

فكان الإسلام أولًا : التوجه إلىٰ القدس ، ثم أصبح التوجهَ إلىٰ الكعبة ، وكذلك شرائع الأنبياء : فالمتأخر ينسخ المتقدم ، وأصبحت الشريعة المنزلة علىٰ محمدٍ رسول الله ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ هي الشريعة الخاتمة الناسخة لما قبلها من الشرائع .

والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت في أوقاتها إلا أنها كلها تأمر بعبادة الله وحده ، لا شريك له ، وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لجميع الأنبياء (*) ،

(*) ويترتب علىٰ إدراك هذه الحقائق ـ أيضًا ـ : النظر إلىٰ تاريخ الأمم التي سكنت =

وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

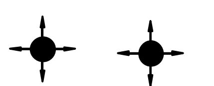
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

❁ ❁ ❁

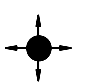
= الجزيرة العربية ، ومصر ، والعراق ، وبلاد الشام ، واليونان ، والروم ... إلخ منذ أقدم الدهور علىٰ أنه تاريخ أمم عاشت في ظل دعوة الرسل ، بعض منها اعتنق الإسلام ، وكوَّن المجتمع المسلم ، ومنهم من رفض دعوة الرسل ، وظل مُصِرًّا علىٰ جاهليته ، أي أن المجتمع كان موزعًا بين الجاهلية والإسلام ، وليس تاريخًا جاهليًّا محضًا (أو وثنيًّا) .

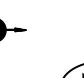
ويترتب علىٰ ذلك ـ أيضًا ـ : أن لهذا الكون خالقًا خلقه ، واستخلف الإنسان فيه لغاية ، وأنه قد زوده بمقومات الخلافة ، وأعلمه عن طريق الرسل بعد أن أخذ عليه العهد أنه مكلف بالإسلام كدين لا يمكن أن يقبل الله من الأولين أو الآخرين غيره .

ولا شك في أهمية إظهار هذه الحقيقة ، حقيقة بداية تاريخ الإسلام كدين في حياة البشرية ، وأنه الدين الواحد الذي دعا إليه الرسل جميعًا ، وأنه بمثابة الصرح الضخم الذي قام كل نبي ببناء لبنة فيه ، حتىٰ اكتمل علىٰ يد رسول الله محمدٍ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بإرادة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وتوفيقه ، قال رسول الله ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : « **مَثَلِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ دَاراً فَأَحْسَنَهَا ، وَأَكْمَلَهَا ، وَأَجْمَلَهَا ، وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ لَمْ يَضَعْهَا ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِالْبُنْيَانِ ، وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ ، وَيَقُولُونَ : (لَوْ تَمَّ مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبِنَةِ؟) ، فَأَنَا فِي النَّبِيِّينَ مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبِنَةِ** » رواه مسلم ، وأحمد .



فهرس الموضوعات





الحقيقة الرابعة :



صدر حديثًا . .

سِيدي تُحْفَة

قصة إسلام أكبر علمـاء النصارى

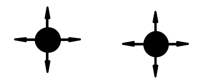
في القرن الثامن الهجري

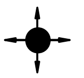
اختصرها

محمد بن أحمد إسماعيل المقدم

ـ عفا الله عنه ـ







صدر حديثًا ..

إنها لأمانة فمن لها ؟

إعداد

محمد بن أحمد إسماعيل المقدم

ـ عفا الله عنه ـ



صدر حديثًا ..

نحو وعي سياسي ..

رسائل إلى الشباب عن الخلافة الإسلامية وحضارة الإسلام

د. مصطفى حلمي

كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة



